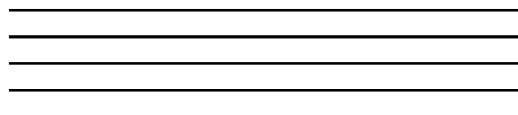
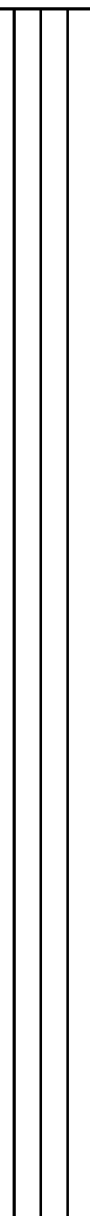


الباب الثانى
مراكز الحركة والاستقطاب
فى المجتمع (من خلال النص)

الفصل الأول



البنى
السياسية
والاجتماعية



١ - طبيعة القيادة السياسية: (من عصبية القبيلة إلى عصبية الدولة)

لقد أرجع ابن أبى الضيف كل الثورات السابقة التى عرفها القطر من الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى إلى :

- كثرة القبائل والعصائب المختلفة فى آرائها وأهوائها ووراء كل رأى وهو عصبية تمنع دونه . بالتالى يكثر الخروج ويصعب الانقياد " وقل إن تستحكم دولة فى الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب" (١) والمقصود بالعصبية هو تغلب أسرة أو قبيلة على الملك وذلك لوحدة النسب وقوة القرابة والولاء . هذا إلى جانب تبنى الدعوة الدينية كشرط لازم لإقامة الملك . إذن إقامة المركز السياسى وعلى الأرضية القبلية يفترض وجود "إيديولوجية سياسية - دينية" وذلك للاستبداد والمظاهرة . والعصبية قد تستفيد منها بعض القبائل أو الأسر بالتغلب على الملك لكن فى المقابل تكون سيفاً مسلحاً ضد القبائل المجاورة أو المنافسة وهكذا تبقى دولة العصبية غير مستقرة لأنه بضعف عصبيتها تسقط الدولة وهذا ما يفسر إصرار المعز الفاطمى عند مغادرته إفريقية إلى مصر توصية يوسف بن زيرى بن مناد " بعدم تولية أحد من أسرته أو أبنائه فى الملك" (٢) .

والدولة الموحدة أرادت أن تتجاوز العصبيات التى شتت إفريقية حيث عملت على تجاوز النسب والعنصر والمذهب وذلك بالدعوة إلى التوحيد

١ - الإتحاف / ١ / ١٢٩ .

٢ - الإتحاف / ١ / ٦٦ .

والرجوع إلى الكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح . من ذلك دعوة عبد المؤمن بن علي^(١) عرب بنى هلال إلى غزو الأندلس قائلا :

"أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل

وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر

وشدوا على الأعداء شدة صائل

بنى العم من عليا هلال بن عامر

وما جمعت من باسل وابن باسل"^(٢).

وإن توصل عبد المؤمن بن علي إلى توحيد المغرب سنة الأخماس

٥٥٥هـ / ١١٦٠م محاولا جمع النسب = أهل الدار

توحيد القبائل = مجلس الخمسين .

الاستعداد بالعلماء = مجلس العشرة^(٣) .

١ - عبد المؤمن بن علي الكومي من أعمال تلمسان . كان ذكيا فصيحاً راغباً في العلم والقيادة تتلمذ على يد المهدي محمد بن تومرت المؤسس الروحي لدولة الموحدين . وكان يعظمه بمحضر من أصحابه ورشحه لخلافته في حياته . فبايعه الموحدون من بعده (٥٥٨ / ١١٦٣) . وقد توفي سنة (٥٥٨ / ١١٦٣) - انظر ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - طبعة فاس بدون تاريخ ص ١٣٣ .

٢ - انظر المقرئ : نفح الطيب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩ ص ١١٧ .

٣ - انظر ابن أبي الزرع : روض القرطاس ١١٧ .

فإنه وجد فى تونس معارضة شديدة سواء من سكان الحاضرة أو القبائل الهلالية وأعراب الجنوب. وقد صرح أنه "لابد من رجل يسد فى إفريقية مسد الخلافة ويقيم الملك" (١).

لكن الحفصيين ورثة الموحدين فى تونس لم يحلوا هذا المحل لا سيما المتأخرين منهم فقد قسموا البلاد إلى إمارات "وأشركوا رؤساء الأعراب فى السلطة" (٢). فدب الاضطراب وعم الهرج. مما دفع السلطان المغربى أبو الحسن المرينى (٣) إلى التحرك إلى تونس لتمهيد العافية بالبلاد لكن إصلاحاته "أسفت الأعراب بقبض أيديهم عن التعدى واسترجاع إقطاعات بنى حفص.. فشتموا الغارات وحاصروه بالقيروان. فركب أسطوله ناجيا بنفسه إلى المغرب" (٤).

والدولة الحفصية إجمالا لم تستطع تجاوز النظام القبلى الموروث القائم على قوة النسب وتلاحم العشيرة. بل لعل نجاحها النسبى فى عهد الأمراء الأوائل يعود إلى التلاحم العائلى وقوة العصبية باعتبارها دولة قامت وتأسست من قبيلة هنتاتة ومؤازرة قبيلة مصمودة الموحدية لها وإن ازدهر الفكر والثقافة فى هذا العهد فذلك بفضل الثقافة المغربية والمشاركة الأندلسية بالإضافة إلى الرصيد الدينى والفقهى القيروانى. لكن المجتمع التونسى بقى مفككا بين

١ - الإتحاف ١ / ١٩٤.

٢ - الإتحاف ١ / ٢١٧.

٣ - هو عثمان بن أبى يوسف يعقوب عبد الحق المرينى استولى على الحاضرة سنة (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) وبقي بالبلاد التونسية عشرة اشهر وبعض الأيام. كان قد سكن الدهماء وأمن الروع ومهد العافية ومحا آثار الحفصيين وبعثهم إلى المغرب. انظر الإتحاف ١ / ٢٢٣.

٤ - الإتحاف ١ / ٢٢٤.

القبائل والحواضر أو بين " طبقة أرستقراطية تتكون من الأشراف وشيوخ
الموجددين ورؤساء العرب وبين عروش وبوادي متناحرة أثرت كثيرا على عمران
البلاد.

ترى هل استطاع الأتراك والحسينيون تجاوز هذا الموروث الثقافي وذلك
بتوحيد المجتمع الرفي والمدينى ومناهضة الزعامات القبلية والانتماءات العصبية
الضيقة التى " جعلت معمر المملكة بلقعا يتأنس به الوحشى ويتوحش به
الإنسى "؟^(١).

لقد أقر الفتح العثمانى بعد أن أطرده الأسبان وأرجع البلاد إلى حظيرة
الإسلام نظاما سياسيا مزدوج النفوذ يشارك فيه الباشا^(٢) والداى^(٣)
والباى^(٤). غير أن تنظيمات سنان باشا^(٥) اتسمت بالتسرع شأن النظم التى
تفرض أثر الحروب مما جعل الدايات والبايات يتنافسون على السلطة
ويتصارعون لكسب النفوذ وقد اعتبر الكاتب هذا الترتيب " سدا لما انثلم من

١ - الإتحاف ١ / ٢٦

٢ - الباشا: هو ممثل الحضرة السلطانية فى الولاية.

٣ - الداى: معنى الداى فى التركية الخال. وأطلقت فى تونس على رئيس إحدى الفرق
الأربعين لعساكر الانكشارية. وقد أدركت بعض العجائز تغنى بهذا فتقول: عساكر
ومحلة داى يا سيدى بابا " انظر ابن أبى دينار: المؤسس فى أخبار إفريقية وتونس -
تونس ١٩٧٦ - ص ١٠٠.

٤ - الباى: يطلق عند العثمانيين على رؤساء القبائل وكبار الموظفين المدنيين. كلف فى تونس
بقيادة المحلة المكلفة بجمع الضرائب.

٥ - سنان باشا: من القواد والعظام وكبار الوزراء فى الدولة العثمانية. له آثار عظيمة بكثير
من البلدان الإسلامية التى دخلها أو ولى عليها مثل اليمن والشام ومكة والمدينة والقاهرة.
حل بتونس سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٦م - توفى سنة ١٠٠٤هـ. انظر الإتحاف ٢ / ٢٣.

السياج وتألف للناس" ^(١) ومن بين هذه الألقاب لم يطف على سطح الهرم الاجتماعي والسياسي إلا لقب "البايات".

ومن أبرز عوامل ترقى البايات في سلم العرش السياسي بدءا بالمراديين إلى الحسينيين نذكر:

- الدور العسكري والاقتصادي:

كلف الباي الفتح العثماني بقيادة المحلة ^(٢) العسكرية لجمع الضرائب وتأليف شوارد العامة. حيث يجوب البلاد مرتين في السنة ترافقه أثناء سفره فرقة عسكرية لصيانة الأموال من جهة ولفرض إرادة السلطة من جهة أخرى. فالباي من خلال هذا الدور أصبح يجمع بين صفتين هامتين في الدولة: قيادة الجيش وإدارة مالية البلاد. فأسطا مراد مثالا الذي كلفه يوسف داي بخطة باي الأمحال سنة (١٠١٩هـ / ١٦١٠م) لجمع الضرائب والأموال استطاع تأليف شوارد البلاد وتأمين الطرقات وتشريد أهل البغي والفساد "وكثرت في أيامه المغانم" ^(٣).

لقد أصبح باي تونس في رتبة باشا وأقره في ذلك فرمان ^(٤) من الباب العالي ^(٥) كذلك الشأن لحسين بن علي التركي فهو لم يكن عالما ولا فقيها ولكنه كان كاهية في جيش إبراهيم الشريف "وعلى كل حال قدمه حسبه ولم يؤخره نسبه" ^(٦).

١ - الإتحاف ١ / ٣٠.

٢ - المحلة: عساكر نظامي يخرج مع الباي لاستخلاص الضرائب من الرعايا بالأرياف وأقاصي البلاد.

٣ - الإتحاف ١ / ٣٩.

٤ - فرمان: هو مرسوم سلطاني لإقرار شرعية أي عمل.

٥ - الباب العالي: مركز السلطة في الدولة العثمانية.

٦ - الإتحاف ١ / ١٠٥.

إذن فالنسب فى تلك الفترة لم يعد شرطاً من مقتضيات القيادة كما هو الشأن قبل الفتح العثمانى . قد تراجع شرط النسب والشرف الرفيع لفائدة الحسب .

"وما ينفع النسب الهاشمى *** إذا كانت النفس فى باهلة" (١) .

فحسين بن على اصطفاه سكان الحاضرة أميراً لهم وذلك لبلائه وشجاعته الحربية مع أنه "لم يطلبها" (٢) أى الإمارة .

- الدور الاجتماعى - السياسى :

المقصود بذلك هو تواصل باى الأمحال بمختلف القبائل النائية بأقاصى البلاد وتوطيد العلاقة مع أعيانها ومشايخها وحتى شيوخ الزوايا والأولياء الصالحين . وأكثر من ذلك تقوية العلاقة بالمصاهرة "فحسين بن على تزوج امرأة من الشنانفة" (٣) . وهذا الاقتراب ربما أحدث شرخاً فى مراكز القوى بالبلاد فى العهد الحسينى حيث اقترب البايات من أعيان البلاد واستغنوا شيئاً ما عن العسكر التركى . أما الدور السياسى الذى شجع البايات على الترقى والمحافظة على العرش هو موقف الباب العالى . "إذ أنه لم يتجاوز التأييد والتفويض لما تقتضيه مصالح الولاية" (٤) .

ولم تخرج القيادة السياسية فى عهد الأتراك والحسينيين من أمراء العسكر وقادة الجند حيث أصبح عرش المملكة دولة بينهم وبين أبنائهم وأحفادهم .

١ - نفس المرجع

٢ - الإتحاف ٢ / ١٠٧ .

٣ - الإتحاف ٢ / ١٠٦ .

٤ - محمد بيرم الخامس : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار . المطبعة الإسلامية

(١٨٨٤) / ١ / ١٣٣ .

فحسين بن على مثلا لما امتطى صهوة الولاية ودانت له البلاد استبد بالحكم عن ابن أخيه وجعل الولاية بعده لابنه محمد باى رغم أن الشيخ زيتونة^(١) أمره بالتأنى والتشبيت فى هذه المسألة وقال له "الآن خفت عليك حيث اعتمدت على حولك وقوتك"^(٢).

أجابه حسين باى قائلا: "لا تخشى فإن إفريقية كسجادة طويتها وجلست عليها"^(٣).

فالملك الحسينى نحى منحى العصبية واعتمد على الشوكة الظاهرة والغلبة فى مجتمع فوض له إمارة البلاد تجنباً للفتن وإراقة الدماء.

إذن نلاحظ معيار الأهلية والكفاءة العلمية فى انتداب الأمير فسقطت العلاقة المتلازمة بين العلم والمسئولية واستبدلت بثنائية القوة والسلطان. فمعيار الحراك والترقى فى العهد الأغلبى مثلا كان مؤسسا على قيمة العلم قبل القوة. فإبراهيم بن الأغلب "كان فقيها أديبا خطيبا"^(٣). كذلك أسد بن الفرات صاحب المدونة الأسيدية وفتح صقلية سنة (٢١٢ / ٨٢٧) لما ولاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمارة الجيش بعد القضاء صرح قائلا: "والله ما ولى أب ولا جد ولاية قط . . . وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام"^(٤).

إذن على أساس علاقات القرابة والدم والشوكة الظاهرة ستحدد المشاركة

١ - محمد زيتونة: من علماء المستير عاش بين سنتي (١٠٨١هـ / ١٦٧٠م) (١١٣٨هـ / ١٧٢٦م).

٢ - الإتحاف ٢ / ١٣.

٣ - الإتحاف ١ / ١٣١.

٤ - الإتحاف ١ / ١٣٤.

فى العهد الحسنى وستحل محل العصىات المحلية الخائرة والمنحلة العصىة المملوكىة سوا فى الوزارة أو العمالة أو الجيش .

فمظاهر العصىة فى خطة الوزارة تتجلى من خلال حصر الانتداب داخل القضاء الأناضولى والتركى واستبعاد المشاركة المحلية . فالوزىر داخل النظام السىاسى الحسنى جىء به غلاما من أرض البلقان أو اليونان إلى قصور البایات والأمرأ . وبفضل مواهبه العسكرية والفكرىة یجد الطریق أمامه مفتوحا نحو الترقى فى الجهاز العسكرى والإدارى ، وقد سىطر الوزراء الممالىك على أغلب المناصب فى البلاد بل هناك من احتكرها عقودا من الزمن مثل وزارة مصطفى خزندار التى دامت ستا وثلاثین سنة . وشكلوا بذلك طبقة سىاسیة عسكرىة لها نفوذ كبرى فى البلاد ، ولكن هذا الزحف المملوكى على الوظائف الوزاریة ظل خاضعا إلى السیطرة العليا للباى باعتبارهم " من صنائعه وموالیه " (١) . أما المنحدر الاجتماعى للعسكر الحسنى فى عمومیه فهو أناضولى شرقى یعود انبعاثه إلى الفتح العثمانى . ومعظم قواد العسكر من الممالىك الذین تربوا فى قصور البایات . ولكن وإن وقع التقلیص النسبى من صلاحيات هذا العسكر بالاعتماد على قوة الأهالى فإنهم یعتبرون الأیالة " بلاد السلطان العثمانى وهم عسكره ورعیته " (٢) . وباستعمالهم فى حمایة الموسم الفلاحى والإشراف على إدارة بعض الأحباس بدأ العسكر التركى یخرج من عزلته الاجتماعیة ویستغنى عن فكرة التملك والحیازة .

١ - الإتحاف ١ / ٢٧ .

٢ - الإتحاف ١ / ١٥٢ .

وأضحى شعاره "الذى يصبح على الكرسي هو أميرنا"^(١). وبالنسبة لسلطة العمال فإنها تتوزع بين المدن والأقاليم الكبرى من الأرياف ويمثلون الامتداد السياسى لنفوذ البايات داخل البلاد وفى عمق المجتمع القروى والريفى. ويذهب الدكتور عبد الباقي الهرماسى "إلى أن انبثاق فئة القواد أو العمال يعود إلى إسقاط سيادة القبائل المالكة"^(٢).

وبما أن اختراق سيادة القبيلة ليس سهلا فقد "أسند حسين بن على هذه الخطة بمشارطة مالية"^(٣). وذلك لإضخاع القبائل القروية وتسهيل أمر الجباية. أما المنحدر الاجتماعى لأغلبية العمال فى القرن التاسع عشر يعود إلى أصول تركية ومملوكية. فأحمد باى^(٤) مثلاً "أولى أبا العباس أحمد زروق وهو من مماليك عمه عمل الجريد"^(٥). كما أولى على عرش أولاد عون حانية من عجم الترك"^(٦).

فالسلطة الحسينية فى القرن التاسع عشر كانت تخشى من المشاركة

١ - الإتحاف ٣ / ١٢٩.

2 - Abdel Beki HERMASSI: histoireel an Magreb. Edition maison intropo francais, Paris 1975 p40

٣ - الإتحاف ٣ / ٢١.

٤ - أحمد باى: هو الباي الحسينى التاسع. تولى الحكم بين سنتى (١٨٣٧ / ١٨٥٥) وقد ولد سنة (١٢٢١هـ / ١٨٠٦م) بالحاضرة. ولى بعض الأعمال إلى أن بويع بعد وفاة والده. زار أوروبا سنة (١٢٦٢هـ / ١٨٤٧م) وقد أدخل أساليب جديدة على إدارة الجيش وتعلمه إلى جانب بعض المبادرات الأخرى، انظر خير الدين الزركلى - قاموس راجم الأعلام دار العلم الملايين - لبنان ١٩٧٩ / ١ / ٢٥٨.

٥ - الإتحاف ٤ / ١٣٠.

٦ - الإتحاف ٣ / ١٠٩.

السياسية لأبناء البلاد وخاصة في الجهة الغربية والجنوب حيث توجد هيمنة واضحة لبعض القبائل الكبرى.

ولعل الاختيار المملوكي للإشراف على الآفاق هو الذي خلق توترا مستمرا بين مجتمع الريف والدولة. وقد أشار أحمد بن أبي الضياف إلى إرادة الاحتكار السياسي في أعلى الهرم حيث يقول عن أحد البايات: "ومن أخباره أنه لا يولى من القبيلة عاملا منها لأنه يؤثر قرابته وتتقوى بهم شيعته من المشايخ والهواديك^(١)" (٢).

فالقيادة السياسية من أعلى الهرم إلى أدناه لم تخضع معيارية الحراك السياسي إلى الشروط العلمية والثقافية كما أنها لم تفتح مجال المشاركة في المناصب الإدارية لأبناء البلاد ولادة إلا لما. وهذا يدل على أن القيادة تحولت من العصبية القبلية إلى عصبية مملوكية منفصلة عن المجتمع. وبالتالي لم تتوصل هذه السيطرة التركية والمملوكية إلى وضع مشروع تعاقد سياسي يتجاوز معيار النسب والعنصر إلى الكفاءة العلمية والمصلحة العامة وذلك بتداول المسؤوليات بين أبناء البلاد ولادة وولاء دون استثناء أو إقصاء. وثورة العربان في القرن التاسع عشر برهنت على فشل التوجه السياسي عندما أعلنت عن ضرورة المشاركة الوطنية وعزل المماليك: "إننا نريد قيادة من أفراد

١ - هيدوك: وهي كلمة مجرية (HAYDUK) وصارت بالتركية (HAYDUT) استعملت في المجر والنمسا وبعض بلدان البلقان في أوقات مختلفة بمعنى اللص والصلعوك والراعى والخدام والشاويش. ثم أطلقت على بعض متطوعة البلقان الذين قاوموا الحكم التركي. شاع استعمالها عند الأتراك في تونس بمعنى عريف - انظر الإتحاف ٣ / ٢١.

٢ - الإتحاف ٣ / ١١٠.

القبيلة وتختارهم القبيلة من أصل تونسى عربا مثلنا ساكنين بيننا^(١) فكيف
نظر الكاتب إلى أهل التناقض بين القيادة السياسية والحسينية وبين ثقافة
المجتمع المحلى وخصوصياته؟

٢ - مستويات الحراك السياسى:

أ - انفتاح الحراك:

المقصود بانفتاح الحراك هو التواصل الممكن بين المجتمع والدولة لا على أساس الإخضاع والإكراه واعتبارات النسب والعنصر بل على أساس تبادل الخدمات وانتظام المصالح. فتكون بذلك الدولة طالبة ومطلوبة وتكون الرعاية طائعة منقادة. وحسب الكاتب فإن مستوى هذا الحراك السياسى المشروع يخضع إلى الشروط التالية:

* المنبت:

المقصود بالمنبت هو الانتماء الترابى الوطنى للحاكم فيخرج من هذا التحديد الانتماء الدينى. وعلى هذا الأساس يفرق ابن أبى الضياف بين دأى فى سلوكه غلظة وفى انتمائه تعصب. وبين دأى رؤوف القلب مثل الدأى أبى العباس أحمد الباوندى الذى امتاز عن غيره ممن سبقوه "لأنه كان ممتزجا بأهل البلاد" (١).

فالأهلية السياسية من منظور الكاتب تتوقف على التحام الحاكم بالرعية ومعنى هذا الالتحام هو معرفة عوائد الناس وطباعهم ومنازل أشرافهم لا سيما وأن أهل إفريقية حسب رأيه "تسكن إلى واحد منهم نشأ فى أرضهم ولو من الموالى" (٢). وبين أن هذا الالتحام الترابى إنما يقتضيه.

- طباع القوم وعوائدهم إذ لا يعقل قيادة الرعية بغير أخلاقهم.

١ - الأتحاف ٣ / ١٧٧.

٢ - الإتحاف ١ / ١٣٠.

- الشرع: لأن الله من على المؤمنين برسل منهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (١).

ويترتب على التخلق بعوائد الرعية النتائج التالية:

- عدم الإيثار بأعمال المملكة غيرهم.

- استقرار الملك.

- حب الوطن.

- يقل الهرج وترسيخ الدولة (٢).

وضرب الكاتب مثلا في ذلك أن عبد الرحمن الداخل (٣) (صقر قريش) لما خرج فارا بنفسه من الشام إلى الأندلس. فإنه رغم نجاته من القتل وتحصين ملكه بالأندلس آله كثيرا فراق وطنه لأن "ابن الوطن همه وطنه" (٤).

فالانتماء الوطنى أو القطرى لا يعنى عزل الأجناس الأخرى الغربية عن الوطن إنما معنى المنبت هو التحبب إلى أهل الإيالة والامتزاج بهم وعدم الاستكبار عنهم كما فعل بعض البايات والمماليك الذين ارتقوا بعصبيتهم عن

١ - سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

٢ - الإتحاف ١ / ١٣٠.

٣ - يقول عبد الرحمن الداخل الأموى معبرا عن شوقه إلى وطنه:

إن جسمى كما علمت بأرض	وفؤادى ومالكه بأرض
فرق البين بيننا فلفترقنا	وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضى

انظر الإتحاف ١ / ١٣٨.

٤ - نفس المرجع.

عوائد المجتمع وجعلوا الملك وشؤون الدولة دولة فيما بينهم مع أن المصلحة والواقع يقتضيان تشريك سكان الإيالة فى إدارة بلادهم .

فالانتماء الترابى حسب الكاتب لا يعنى تحديدا جغرافيا لأن المصلحة الاجتماعية لا تعنى تحديدا تراثيا ولا تملصا عن نفوذ الخلافة العثمانية : " فالإيالة مملكة من الممالك العثمانية " (١) . لكن التناقض حسب الكاتب لا يكمن بين المستوى القطرى والإسلامى إنما يكمن فى التعارض القائم بين طبيعة السلوك السياسى وخصوصية منبت المجتمع المحلى .

فالمجتمع التونسى قبل شرعية التمثيل المرادى والحسينى ولم يقف عند انتمائهما الجغرافى ومنحدرهما الاجتماعى . وقد بين الكاتب أن مسائل السياسة والقيادة هى أمور تنافسية حسب الجهد والطموح والكفاءة ، من ذلك أن عمر بن عبد العزيز لما أنكر عليه العرب تشريك رجلين من الموالى فى القضاء واقتصر على واحد من العرب قال : " ما ذنبى إذا كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون " (٢) .

وكمثال آخر على حب الرعية أو بغضها لحكامها بين الكاتب تحيز أهل تونس لمحمد باى المرادى ضد عمه محمد الحفصى لما نازعه الملك وذلك " لبغضهم له وحبهم فى ابن أخيه " (٣) .

وفى إطار الالتحام ورفض إمارة الغرب انحاز أعراب البلاد إلى الحسن

١ - الإتحاف ١ / ٤١ .

٢ - الإتحاف ١ / ٢٩ .

٣ - الإتحاف ١ / ٤٠ .

الحفصى ضد سنان باشا وذلك لأنهم "يدينون لسلطانهم النابت فى تربتهم الملتحم فى جلدتهم المتكلم بلغتهم" (١).

* الوازع:

لقد أرجع الكاتب خروج الملك من أيدي الحفصيين إلى ضعف الفضائل السياسية حيث "لم يكن للمتأخرين منهم ما يردع أغراضهم النفسانية من وازع شرعى أو سياسى" (٢).

والمقصود بالوازع الشرعى هو قانون الملك الإسلامى المتمثل فى القرآن العظيم وأقوال الرسول ﷺ ثم استنباط الأئمة المجتهدين ورثة الأنبياء وحفظ مقاصد الشريعة التى تقوم على المصلحة. أما القانون فهو من الخصال الحميدة التى يقتضيها الوقت والحال من السياسة" (٣).

ولم يفرق الكاتب بين الوازع الشرعى والوازع العقلى لأن مدارهما واحد وهو العدل "وفروع القانون أما شرعية بالنص أو مما يشهد الشرع لأصلها بالاعتبار" (٤).

لقد أكد ابن أبى الضياف كثيرا على ضرورة اعتماد هذا الخلق فى السياسة وذلك لأن النظام السياسى فى العهد الحسينى لم يشهد تقينا للرأى المخالف ولم يسمح بذلك لأن دولة البايات كانت تفتقد موضوعيا لآليات ممارسة الفعل السياسى المعقلن بل كانت الممارسة تستند إلى ما جرت به العادة أو ما جرى عليه السلف أو "هكذا ظهر لى" (٥).

١ - الإتحاف ١ / ٢٤

٢ - الإتحاف ٢ / ٢٩.

٣ - الإتحاف ١ / ٤٥.

٤ - الإتحاف ١ / ٥٩.

٥ - الإتحاف ١ / ٤٦.

فالفاعل السياسى لم يخرج عن دائرة الشخصية والأحادية - فالباى هو الأمير وهو الآغا^(١) وهو القاضى وهو الجابى . . . "وهو الأعلم بسياسة الرعية"^(٢).

* السلطان طالب ومطلوب:

الشرط الثالث إلى جانب الانتماء والوازع هو مسألة العلاقة بين الدولة والمجتمع. إذ أن الممالك لا تكون على نهج استقامة "إلا إذا كانت طالبة ومطلوبة"^(٣).

فمن مطالب الدولة الضرورية مثلاً:

- المال لتعمير البلاد وتوفير المرافق.

- الجند لحماية الوطن والدفاع عن المجتمع والدين.

أما طلب الرعية فيتمحور حول جملة من الحقوق الضرورية مقابل الواجب المقدم للدولة. لكن تبادل الخدمات بين المجتمع التونسى والدولة الحسينية فى القرن التاسع لم يكن متمثلاً وذلك لغياب دولة العموم التى يتماثل فيها الحق والواجب وتبادل المنافع بين الرعية والسلطان.

ب - انغلاق الحراك:

ينعدم الحراك السياسى بين السلطان والرعية وذلك عندما تكون العلاقة بينهما مؤسسة على اعتبارات الدم والعصبية والقوة حيث ينعدم التواصل ويغيب الاندماج وتبدأ المغالبة والمواجهة.

١ - الآغا: يعنى ضابط سامى يشرف على قيادة الفرق العسكرية.

٢ - الإتحاف ٥ / ١٢٨.

٣ - الإتحاف ١ / ٨٥.

ومن أسباب هذا الفصام المعلن بين الدولة والمجتمع التى ذكرها الكاتب
نذكر:

* الحكم المطلق:

وهو مظهر من مظاهر الاستبداد السياسى الذى يمارسه السلطان على
رعيته معتبر إياه سيادة حازمة ومعقولة ضد "أجلاف الأعراب والبوادر" وضد
كل خارج عن طوعه. وفكر الإطلاق لا يستجيب للنصيحة والمشاركة
ويعتبرها خيانة باعتباره هو رمز العصمة السياسية والمركزية الإدارية. وعامة
الناس فى ظل الحكم المطلق تجدهم "كالبهائم" المنقادة يساقون إلى الموت وهم
ينظرون. "إذا أسرف بأموالهم يقولون عنه كريم وإذا قتل ولم يمثل يقولون
عنه رحيم" (١).

والملك المطلق حسب الكاتب لا يستيحيه.

- الشرع: "لأنه تصرف فى عباد الله وبلاده بالهوى" (٢).

- العقل: "لأنه تغلب وقهر" (٣).

ومن نتائج سياسة الإطلاق حسب رأيه:

- "وهن المسلمين ونقصان بلدانهم" (٤).

- "كثرة الثوار والخارجين" (٥).

١ - عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. النسخة القديمة - المكتبة

الشرقية مصر (د. ت) ص ٣٣.

٢ - الإتحاف ١ / ١٩.

٣ - نفس المرجع.

٤ - المصدر السابق.

٥ - الإتحاف ١ / ٢٠.

- "التخلق بذل المغارم والقهر" (١).

- انتفاء الانتماء وحب الوطن والانسلاخ عن أخلاق الأحرار.

فالحكم المطلق حسب الكاتب هو مصدر كل الأمراض الاجتماعية التي تستهدف الفرد والمجتمع والوطن. ففي ظل دولة الإطلاق تتأزم العلاقات وذلك لتنافر القلوب وتباين المصالح. حيث يلغى الحراك تماما بين الدولة والمجتمع. لا سيما ومقومات الحضور الاجتماعى والسياسى مفقودة.

والفرد عاجز مقهور لا يحس بانتمائه لهذا الوطن. "حتى صار بعض أهل الجهات من المسلمين عبيد جباية ليس لهم من مسقط رؤوسهم وبلادهم ومنبت آبائهم وأجدادهم إلا إعطاء الدرهم والدينار" (٢).

* التعدى والانقباض من الكسب:

المقصود بالتعدى هو نهب أموال الرعية بوجه لا يقتضيه العقل ولا الشرع فتنبض الرعية عن الكسب ما دام الجهد مغبونا والتحصيل منهوبا من قبل السلطان وأعوانه حتى أن بعض المماليك من جهلة الترك يقولون: "العربى خذ ماله واقطع رأسه" (٣). وهذا ما يفسر رفض العربان فى ثورة ١٨٦٤ تسديد الجبايات المجحفة بالذهب بأعمالهم وأموالهم وكذلك عدول بوادى الخيام "عن بناء المساكن وغرس الأشجار ومجاورة المياه. . . . ما ذلك إلا من عدم الأمن وتوقع العدوان" (٤) وفى هذا الإطار يقول ابن أبى الضياف معبرا عن هموم العربان والبوادى:

"أوتيت ملكا لترعانا فتأكلنا *** أكل الذئب! أذئب أنت أم راعى؟" (٥).

١ - الإتحاف / ١ / ١١ .

٢ - الإتحاف / ١ / ٢٦ .

٣ - الإتحاف / ١ / ١٢٩ .

٤ - الإتحاف / ١ / ٢٥ .

٥ - الإتحاف / ١ / ٢٠ .

٣ - "استراتيجية" الدولة إزاء الرعية؛

إن طبيعة الحراك السياسى فى القرن التاسع عشر بين الدولة والمجتمع بقيت رهينة النسيج الاجتماعى التونسى آنذاك الذى يتشكل من مداشر وقرى وقبائل وحواضر متباينة فى انتظامها وعلاقاتها وذلك لقلّة اندماج هذه الوحدات فيما بينها حسب العادة والعرف واختلاط وسائل الإنتاج. كذلك بقى الحراك خاضعا كما بين ابن أبى الضياف حسب خطاب السلطة وطرق تعاملها فى سياسة الرعية من قبائل ومدن.

وقد فرض هذا التباين الاجتماعى والسياسى اتباع "استراتيجية" لقيادة المجتمع تتراوح بين سياسة الاحتواء من جهة وسياسة المواجهة من جهة أخرى. وقد استشعرت الدولة صعوبة التواصل بينها وبين خلايا المجتمع آنذاك وهذا ما يعكس حالة التوتر الدائم بين الجماعة والدولة والذى تحول سنة ١٨٦٤ إلى ثورة عارمة كادت تستأصل النظام الباياتى من جذوره. لذلك قال أحمد باى عندما عرض عليه أمر جبانى يتعلق بالرعية "لا أعادى إفريقية فى يوم واحد لأن كل من تطلبه يسير بطبعه عدوا" (١).

أ - سياسة الاحتواء؛

تتمثل مظاهر الاحتواء فى التقرب من زعامات المجتمع المحلى والإحسان إليهم ومحاولة اعتناق ثقافة الرعية والتخلق بعاداتها وأعرافها حسنة كانت أو سيئة وذلك لإضفاء الشرعية الثقافية والدينية على الملك الحسينى. فحسين بن على مؤسس الدولة "كان عالما بتنزيل السياسة فى منازلها محببا إلى الناس معظما للعلماء والصالحين" (٢).

١ - الإتحاف ٤ / ١٩٣.

٢ - الإتحاف ٢ / ١١٧.

ولعل من أسباب التخلق بأخلاق الرعية والتجذر في ثقافة المجتمع المحلي يعود إلى محاولة كسب ولأنها حسب الاعتبارات الضرورية القائمة آنذاك :

* الاعتبار الاجتماعي والاقتصادي:

ينحدر مؤسس الدولة حسين بن علي من جزيرة كندة^(١) اليونانية. ينتمي إلى سكان الإيالة بالولاء لأنه يعد من الوالى الذين ترقى بهم الخدمة العسكرية إلى الخطط الرفيعة. وقبل إمارته للبلاد وأثناء عمله بالكاف وحراسة قلعتها "كان قد تزوج امرأة من عرش شارن وامرأة من عرش الشنانفة"^(٢).

والمصاهرة واختيار العائلات من العروش من قبل الأمراء المماليك دليل على إرادة تحسين نسبهم وتأكيد انتمائهم الاجتماعي لهذا الوطن. وقد اعترف أحمد باى بضعف نسبه عندما قال له أحد المترلفين:

"إن داركم أقدم دار بتونس .

فقال له: إن دار الرصاع ودار القلشاني... وبيوت بعض الأكابر من العربان أقدم من دارنا^(٣) وقد أكد أحمد بن أبى الضيف على إرادة الامتزاج بسكان الإيالة من قبل أحمد باى الذى حاول تجنب مبدأ عصبية النسب وعمل "على مصاهرة أبا عبد الله محمد المرباط الغريانى من أعيان أكابر القيروان على أخته"^(٤).

١ - كندة: Candic هي مدينة بجزيرة "كريت" يسمون بها الجزيرة كلها.

٢ - الإتحاف ٢ / ١٠٦ .

٣ - الإتحاف ٤ / ١٨٨ .

٤ - الإتحاف ٤ / ١٨٩ .

بل أكثر من ذلك أمر شيخ الإسلام بإنشاء خطبة لهذا العقد وذلك للتنويه بسياسته الاجتماعية المنفتحة على المجتمع . وهذا الجمع بين عقيدة بيت الرئاسة بالنسب العريق في البلاد يعكس محاولة السلطة الحاكمة تأصيل ذاتها في كيان المجتمع وتراثه .

ومن مظاهر الامتزاج بتاريخ المجتمع وتراثه إلى جانب تقوية النسب تسعى بعض البايات إلى تقوية أواصرهم الاجتماعية بأهل المدن والخواضر وذلك للاستفادة من ثراء "الأرستقراطية" المدينية وكسب ولائهم، مثل محاولة حسين بن علي التعرف على ثورة بعض الأغنياء ومراقبتهم وذلك "لاختيار حال البلاد ومعرفة الغنى من الفقير"^(١) .

وضمن الاعتبار الاقتصادي فقد تم انتداب أمناء المال من أبناء الأعيان الذين تدعم نفوذهم داخل الهيكل السياسي والاجتماعي كآل بن عياد وآل الجلولي حتى أصبح الواحد منهم النصوص الأوفى والمقرب زلفى، لكن هذه العلاقة المنفعية بين الدولة وأثرياء الأعيان من البيوتات التونسية وصلت بعد منتصف القرن التاسع عشر إلى القطيعة والاختلاف حيث أفلست "طبقة" الأعيان من القياد واللزامة كآل الجلولي وآل بن عياد وعاد الدور من جديد بعد تجربة العنصر المحلى إلى العنصر اليهودي . كذلك من مظاهر الاحتواء الاقتصادي تحجير على باشا^(٢) تعاطى الفلاحة من قبل أبنائه ووزرائه معتبرا إياها "معاش الضعفاء والعامة"^(٣) وقد استحسن ابن أبي الضياف هذه السياسة واعتبرها من أخلاق الرئاسة وعلو الهمة وعزة النفس .

١ - الإتحاف ٢ / ١١٨ .

٢ - ولاية على باشا بدأت بعد مقتل عمه حسين بن علي وكانت سنة (١١٤٨ / ١٧٣٥) .

٣ - الإتحاف ٢ / ١٥٠ .

* الاعتبار السياسى والثقافى :

لقد عمل حسين بن على على تقليص النفوذ التركى داخل البلاد وذلك "لما فى نفوس القوم من الميل إلى قلب الأمر بينهم"^(١) فالدايات الأتراك يعتبرون أنفسهم أحق بالتقدم منه لاسيما وهم من جنس السلطان العثمانى ولهم الفضل فى فتح البلاد وطرد الأتراك. لكن ابن أب يالضياف يرى "أن الترك يريدون الأمر دولة بينهم وطريق الوصول إليه الإقدام والعصية"^(٢).

فالكاتب يعتبر الحسينين أقرب إلى طباع الأهالى وأحسن خلطة من الأتراك وذلك لإرادة الامتزاج والتخلق بعادات المحليين وعدم الترفع عنهم. وعبر الحسينيون بدورهم عن إرادة الاستقلال عن نفوذ الباب العلى واعتمدوا فى ذلك على سكان الإيالة حتى "أن رأى الملا من أهل تونس بالجامع الأعظم أجمع على عدم قبول محمد الحفصى"^(٣) الذى أرسله السلطان محمد خان بخطة باشا تونس فى عهد محمد باى المرادى سنة (١٠٨٧/ ١٦٧٦). وتطور أمر استقلال بالإيالة عن الباب العالى مع أحمد باشا الذى اعتبر سفره إلى فرنسا أمر تقتضيه المصلحة. وتأكيدا على التوجه القطرى للبايات الحسينيين خرج حمودة باشا^(٤) إلى طرابلس واسترجعها من على برغل "الذى حصل على عهد الولاية من السلطان سليم خان"^(٥).

وبالنسبة للسياسة الثقافية فقد عمل أغلب البايات على بناء المساجد والزوايا وتوقيف الأحباس وهى سنة اتبعها حكام الدولة خلفا عن سلف.

١ - ولاية على باشا بدأت بعد مقتل عمه حسين بن على وكانت سنة (١١٤٨هـ / ١٧٣٥م).

٢ - الإتحاف ٢ / ١٥٠.

٣ - الإتحاف ٢ / ١١١.

٤ - الإتحاف ٢ / ٦١.

٥ - الإتحاف ١ / ٤٠.

وقد اعتبر ابن أبي الضياف مآثر حسين بن علي العلمية "تجديدا لآثار يوسف داي وحموده باشا المرادي" (١). هذا إلى جانب تظهر حكام الدولة برداء العلم والدين .

فحموده باشا "كان ولوعا بالنظر في مقدمة ابن خلدون" (٢) وكان على باشا "يسامر أهل المجلس الشرعي" (٣). أما حسين بن علي فقد نهى ابنته عن ارتداد حزام مثل بالفضة ومزق الحزام وقال لها: "إنك من بنات تونس فلا تخرجي عن عادة إخوتك من بنات البلاد" (٤).

ومن مظاهر المشاركة الثقافية التسوية بين المذهبين المالكي والحنفي والانتداب المحلي لكتبة الإنشاء بالديوان الملكي لا سيما وابن أبي الضياف أول من كتب للدولة العلمية بالقلم العربي .

ب - حركة المواجهة:

* هاجس الخوف من الثورة:

إن بنية الدولة وقيادتها العسكرية المملوكية وطبيعة المجتمع القبلي خاصة لا يسمحان بتأسيس تعاقد سياسى قوامه القانون وتبادل الخدمات . وهذا ما يعكس حالة توتر السلطان الدائمة وخوفه من الثورات . لذلك فرضت الدولة

١ - ولد حموده باشا سنة (١١٧٣هـ / ١٧٥٩م) كانت أمة من أعلاج القرج اسمها محبوبة .

تزوج بها أبوه فى الجزائر . حصل ملكة المشاركة والاكتساب بالتعلم والمخالطة منذ

الصغر . بويج بالولاية سنة (١١٩١هـ / ١٧٧٧م) تدخل فى شؤون الداخلية لطرابلس سنة

(١٢٠٩هـ / ١٧٩٣م) لبث فى الحكم مدة ٣٣ سنة وقد توفى سنة (١٢٢٩هـ / ١٨١٣م) .

٢ - الإتحاف ٣ / ٣٠ .

٣ - الإتحاف ٢ / ١٢٧ .

٤ - الإتحاف ٣ / ١٧ .

"المخزن" كشرط لمعرفة ولاء الناس وعدائهم. والمقصود بالمخزن هو الوفاء فى خدمة الملوك والانصياع لأوامرهم. وهكذا فقد اتخذ العمل السياسى صبغة تحالفية مع زعماء القبائل ومشايخ الطرق وأصحاب الزوايا وذلك لتطويق كل الخارجين وخنق كل الانتفاضات والقضاء عليها فى مهدها.

وقد تساهم الدولة بنفسها فى إثارة الفتن والأحقاد بين القبائل وذلك لاختبار سكون الدهماء وحفظا لسياسة الدولة ودفعاً للخوف والإرجاف. إذن "بان بالكاشف" ^(١) أن الأمراء فى ورطة خوف" ^(٢). فأحمد باى لما بلغه تجاسر البحرية على ضباط الفرقاطة الحسينية وقيامهم عليهم وكان ذلك فى سبيل المزاج. فإنه لم يثبت "وأمر بقتل جنود البحرية والثمانية" ^(٣).

كذلك قبل سفره إلى فرنسا وهو أمر لم يعهد مثله عند أهل المملكة حيث أمر كل الأمراء والمخازنية بالخروج إلى أعمالهم داخل الإيالة. وبعد خروجهم "أشاع أنه يريد السفر" ^(٤). وكانت الدولة تتصدى بقوة للخارجين والمتحزبين سواء كانوا من الأدعياء كعثمان الحداد الذى استجمع الناس حوله فى جبل خمير مدعياً نفسه من أحفاد البايات وقد قتل "وطوف به فى الأسواق بدعوى الحراية" ^(٥) أو كانوا ممن امتنعوا عن دفع الجباية والمغارم مثل بوارق العصيان التى دبت فى وطن الأعراض بعد أن اشترط عليهم اللزام دفع

١ - تعبير محلى: معناه بان بوضوح.

٢ - الإتحاف ٢ / ١١٨ .

٣ - الإتحاف ٤ / ١٥٤ .

٤ - الإتحاف ٤ / ١٠٥ .

٥ - الإتحاف ٢ / ٢٠٠ .

المحصول على دفن الميت فكان ذلك سببا لقتله وسببا لخروج أجمد باى
"لتلافى الصغير قبل أن يكبر والقليل قبل أن يكثر" (١).

* المصادرة والحباية:

كانت بداية الثورات ونهايتها تنتهى بمصادرة أموال الرعية ونهب أملاكها
مثلما فعل إبراهيم الشريف (٢) مع العربان. حيث أطلق يده فى ظلم الرعية
وسلب أمزالتها وكان يقول: "كل معوج الرقبة لإبراهيم الشريف" (٣). كذلك
مصادرة زروق لأملاك الرعية بالساحل خاصة بعد فشل ثورة ١٨٦٤، فقد
حكم يد النهب فى الأموال وتفنن فى سبلها حتى أصبحت "بلدان الساحل
خاوية على عروشها" (٤).

فالمصادرة هى وسيلة من وسائل ردع الخارجين والثائرين عن أمر الدولة
لأن البايات والممالك قلما يظفرون برؤوس "الفتنة" لاحتمائهم بالجبال
والتوغل فى الفيافي. فتكون المصادرة خير وسيلة لقطع دابرهم واستأصال
شافتهم. فعلى باشا مثلا لما أوقع بالهمامة استاق لهم "ثلاثة عشر ألف بغير
ووسمها كلها بوسم الدولة" (٥).

١ - الإتحاف ٤ / ٤٤ .

٢ - إبراهيم الشريف هو الذى أطاح بالدولة المرادية وهو الذى قضى على مراد الثالث
"بوبالة". دامت ولايته بالبلاد ثلاث سنوات (١١١٤هـ / ١٧٠٢م - ١١١٧هـ /
١٧٠٥م).

٣ - الإتحاف ٢ / ٩٨ .

٤ - الإتحاف ٥ / ٢٠٩ .

٥ - الإتحاف ٢ / ١٦ .

أما الجباية فقد أجحف فيها البايات إلى درجة إهلاك الحرث وإتلاف النسل وهى ضريبة مردت الرعية على دفعها للدولة وذلك لتغطية مصاريف الدولة وحل أزماتها. وكان عمال الدولة المماليك والمخازنية هم الذين يباركون قرارات الدولة ويعملون على جمع الجباية وذلك لخبرتهم بهذه الصنعة. حتى أن الذى حصلت له ملكة بذلك يرى أنه "لابد من قوة شديدة لغصب الناس" (١).

وفى الحقيقة مضاعفة المجابى على الرعية تعكس أزمة اقتصادية ناتجة عن ضعف المكاسب الداخلية وسوء تدبير البايات إلى جانب الهيمنة الخارجية وتحويل البلاد إلى سوق للترويج. لذلك ولت الدولة وجهها شطر المجتمع المحلى حتى تدفع ضريبة هذه الأزمة. لكن هيئات فقد استع الخرق على الراقع كما يقول ابن أبى الضياف.

والأدهى من ذلك أن المال المغتصب من المجتمع لم يستعمله البايات لإصلاح ما يمكن إصلاحه رفعا للضائقة وتحسينا للمكاسب وتشجيعا على السعى بل سخر فى وجوه الترف والنزوات السلطانية والتأنق فى المبانى والأشكال الظاهرة بدعوى هوس الحضارة ومجاراة ملوك الوقت. "ومع أن المملكة لم ينقص من أرضها فما زيد فيها شبر ولا حدثت فيها صناعات ولا ازدادت فيها فلاحه ولا نمت فيها متاجر لأهلها واستولى الإفرنج على أكثر منافعها" (٢).

أما موقف الرعية فقد تراوح بين الاحتجاج والرفض والثورة.

١ - الإتحاف ٥ / ١٣١.

٢ - الإتحاف ٥ / ١٤٦.

- الاحتجاج يتمثل فى تنديد الرعية بظلم العمال مثل عامل الوطن القبلى الذى أساء السيرة فى اقتضاء الجباية فخرج أهل عمله شاكين يتقدمهم أطفالهم من المكاتب ضاجين بقولهم: "يارب ألطف بنا المور إلى جار علينا" (١).

- الامتناع والرفض عن دفع الجباية شأن القبائل النائية عن المركز والقادرة على الفرار أمام المحلة.

- المواجهة تتمثل فى الثورة وهى أرقى مظاهر التعبير عن رفض العامة والمجتمع لسياسة البايات.
